الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في إعادة بعث الهويّة الوطنية 1931ـ1939

The Algerian Muslim Scholars' Association and its Role in Reviving the National Identity1931-1939

د. شبوب محمد
أستاذ باحث في التاريخ الحديث والمعاصر بقسم التاريخ، جامعة الشلف الجزائر
zidane_48@hotmail.fr

ملخص

عمدت سلطات الاحتلال الفرنسي منذ أن وطأت أقدامها أرض الجزائر إلى القضاء على الهوية الجزائرية، مستهدفة المدارس والمساجد والزوايا، إما بتخريبها أو قطع التموين المادي عنها. حيث حولت مداخيل الأوقاف إلى الخزينة الفرنسية، وجعلت التعليم فرنسيا وأقامت الكنائس. لتقحم بذلك عادات وتقاليد دخيلة على المجتمع الجزائري، مهددة ثقافته وهويته. وأمام هذا الوضع، قامت جماعة من العلماء بتأسيس جمعية العلماء المسلمين التي حملت لواءإعادة بعث أصول الشعب الجزائري الحقيقية، بتأسيس النوادي والمدارس والمساجد وتعليم النشء اللغة العربية والدين والفقه، منتجة بذلك جيلا متشبعا بتعاليم روحية ودينية، مكنته من التفكير في محاربة الاستعمار.

الكلمات الدالة:.

Abstract

Since the colonization, the French authorities aimed at the eradication of Algerian identity, targeting schools, mosques and Koranic schools, either by deconstructing or reduced funding. They transmitted the income endowments to the French Treasury, in addition, they rendered the education into French one, and established churches, transforming the habits and traditions of Algerian society, menacingits culture and identity. Facing this situation, a group of scientists had created the Association of Muslim Ulemas, who bore the banner to revive the origins of the Algerian people, by creating clubs, schools and mosques in which young people learn the Arabic language and religion to produce a well flourished generation, with a religious spirit, helped him to think of the struggle against colonialism.

Keywords: *colonialism , Algerian Moslim Ulemas Association, idendity , Algerian people.*

مقدمة

شهدت نهاية القرن 19 وبداية القرن 20 صحوة إسلامية كان رائدها جمال الدين الأفغاني الذي عمل على تجديد الفكر الإسلامي وتوعية المسلمين، فطاف في الكثير من ديار الإسلام لتحقيق وإيصال رسالته تلك، وقد سار على طريقه الكثير من الشخصيات أمثال محمد عبده في مصر والشيخ شكيب أرسلان من لبنان، هؤلاء الذين اتبعوا منهج الإصلاح لتطبيق تعاليم الإسلام على شعوب العالم الإسلامي، وقد تزامن ظهور الإصلاح بزيارة بعض الجزائريين أمثال الشيخ الطيب العقبي والعربي التبسي إلى جامعات العالم العربي قصد التعليم، وهناك أدرك هؤلاء بأن التحرر من الاستعمار إنما يبدأ بتحرير النفوس من التبعية والتقاليد الفاسدة [1]، وقد عمل هؤلاء بعد عودتهم إلى الجزائر على إنشاء مدارس حرّة لتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم، كما قاموا بنشر الجرائد المختصة في تناول نهضة الجزائر الثقافية، وهذا ما يجعلها تتطرق للقضايا السياسية من منطلق دعوتها إلى الإصلاح الديني وتحقيق الوحدة الإسلامية والعربية[2] .

ظروف تأسيس الجمعية

كنتيجة للشعور بضرورة وحدة العلماء في أعمالهم، كما كان ذلك في مقاصدهم ظهر في عام 1924 تنظيم سمي" الإخاء العلمي" مركزه العام مدينة قسنطينة يهدف إلى جمع شمل العلماء والطلبة وتوحيد جهودهم وتقريب توجهاتهم في التعليم والتفكير[3].

وحسب ما ذكره أحمد الخطيب فإن فكرة إنشاء ذاك التنظيم تعود إلى العلامة ابن باديس❖ الذي كلف البشير الإبراهيمي بوضع القانون الأساسي لها، لكن وقعت حوادث عطلت ظهور "جمعية الإخاء العلمي"، نذكر منها عدم تجاوب علماء قسنطينة مع تلك الفكرة، لكن قضية تأسيس جمعية لها أهداف دينية وثقافية ظلت الشغل الشاغل لدى البعض طيلة الفترة ما بين 1925 و1930[4].

حيث نسجل في هذا السياق إصدار ابن باديس جريدة "المنتقد"عام 1925، والتيكانت تحارب بعض شيوخ الطرق الصوفية، كما تم في نفس السنة إصدار جريدة "الشهاب" التي كانت تدعو المتعلمين والمصلحين في الجزائر إلى ضرورة التجمع في حزب ديني محض يكون هدفه تنقية الدين من البدع والخرافات، والعودة به إلى مصادره الأولى: القرآن والسنة[5] هذا خاصة أمام سياسة المستعمر القائمة على تعميم الفقر والجهل بين الأهالي وغلق المؤسسات الدينية والتربوية، ومطاردة العلماء والمثقفين واعتبار اللغة العربية لغة أجنبية لا يجوز تدريسها إلا بترخيص من الإدارة الاستعمارية، وتشجيعه في الوقت ذاته التعليم باللغة الفرنسية رغم أنها لغة دخيلة، إلى جانب الاستفزازات والمضايقات التي كانت تقوم بها سلطات الاحتلال ضدّ معلّمي اللّغة العربيّة والقرآن الكريم، ضف إلى ذلك حركات التبشير التي عمدت إلى نشر أفكارها وسط الأهالي الفقراء الذين يعمهم الجهل في غالبيتهم[6].

ونجد أنّ احتفال فرنسا بالذكرى المئوية للاحتلال في الجزائر يوم 05 جويلية 1930 وما رافق ذلك الاحتفال من تحدّيات سياسية واستفزازات دينية مثل تنظيم استعراض عسكري في شوارع العاصمة، والمدن الجزائرية الأخرى بثياب مماثلة للملابس التي كان يرتديها الجنود الفرنسيّون عند الاحتلال[7]، ومن ذلك أيضا تلك التصريحات المهينة التي أدلى بها الحاكم العام في المرسى القديم أمام المهنئين:"... في هذا المكان كانت اللصوصية، حيث كان الظلم والطغيان وكانت أوروبا تخضع لهول وفظاعة القرصنة، نستقبلكم أيها السادة ..."[8]، كل ذلك أدّى إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوم 05 ماي 1931 بزعامة عبد الحميد بن باديس[9]، وذلك بنادي الترقي بالعاصمة[10]، حيث حضر اثنان وسبعون عالما من مختلف القطر الجزائري أمثال الشيخ الطيب العقبي ومبارك الميليإضافة إلى الطلبة[11].

وقد قام المجتمعون بانتخاب الهيئة الإدارية للجمعية التي تكوّنت من 13 عضوا حيث تم انتخاب ابن باديس رئيسا لها- كما مر بنا-رغم أنه كان غائبا، وتم اختيار محمد البشير الإبراهيمي نائبا له[12]، ومحمد الأمين العمودي كاتبا عاما، والطيّب العقبي نائب الكاتب العام ومبارك الميلي أمين مال الجمعية[13].

وبعد الانتهاء من التنظيمات الإدارية في الجمعية وتوزيع المسؤوليات على أعضاء مجلسها الإداري، تقدّمت بطلب رسمي للحصول على ترخيص من الإدارة الاستعمارية فجاءت الموافقة بصورة سريعة من عمالة العاصمة يعود ذلك القبول حسب ما ذكره أحمد الخطيب إلى عوامل عدة منها:

- الاحتفال المئوي لاحتلال الجزائر وما رافقه من استفزاز لعقيدة الجزائريين، وبالتالي جاء الترخيص لجمعية العلماء كخطوة معتدلة من طرف فرنسا لتهدئة الشّعب الجزائري ومنعه من الاحتجاج.

- وجود شخصية فرنسية معتدلة هو جان ميرانت، على رأس مديرية الشؤون الإسلامية يعرف عنه تسامحه تجاه الحركات الإصلاحية.

- إدارة الجمعية شملت كافة القطاعات الدينية الإسلامية المتواجدة على السّاحة الجزائرية فضمّت المصلحين والعلماء المستقلين، وبذلك لم تظهر معارضة من أية فئة يمكن للإدارة أن تحتج بها[14].

ونجد أنه بالرغم من أن الجمعية قد أعلنت في بيان تكوينها بأنها جمعية اجتماعية ثقافية غير مهتمة بالشؤون السياسية، إلا أن أهدافها المعلنة كإحياء اللغة العربية ومحاربة الشعوذة جعلت منها أهم تشكيل وطني يحارب الاستعمار يومئذ[15]، وذلك باعتماد طريق غير مباشر كإتباع أسلوب التنوير، والعودة بالمجتمع إلى أصوله العربية الإسلامية ورفض كل المظاهر المعبرة عن الخرافات [16]، ومحاربتها التجنّس والإدماج والتنصير وكل ما يقضي على الشخصية القومية للشعب الجزائري[17].

أهداف الجمعية

ذكر محمد مبارك الميلي بأنّه يوجد للجمعية هدف على المدى البعيد يتمثّل في تكوين مجتمع جزائري قائم على أسس عربية إسلامية[18].

وإني أوافقه الرأي فيما ذهب إليه وذلك لأنّ الجمعية في بداية مسارها الإصلاحي قامت بالاهتمام بالجانب المعرفي، وهذا ببناء المدارس والكتاتيب لصالح الأعضاء، وتقديم مناهج دراسية لهم مبنية على نظم إسلامية، وعليه تتشبع تلك البراعم بأفكار الجمعية فتتعرف على أصلها وحقيقتها ومن ثمّ تعلن الجهاد على المستعمر الدخيل.

ولتحقيق تلك الأهداف اعتمدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عدّة وسائل كالصحافة، حيث قامت بتأسيس

عدة جرائد "كالشّهاب"(1925-1939) والبصائر(1935-1956)، كانت تلك الصحف تدافع عن الإسلام والعروبة، نذكر هنا ما ورد على لسان عبد الحميد بن باديس في مجلة "الشّهاب" لعام 1937 :" العروبة والإسلام والعلم والفضيلة هذه أركان لقضيتنا وأركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي هي مبعث حياتنا ورمز نهضتنا فما زالت هذه الجمعية كما كانت تفقّهنا في الدين، وتنيرنا بالعلم وتحلينا بالأخلاق الإسلامية العالية والفضيلة، وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميّتنا وتربطنا بوطنيّتنا العربية الإسلامية"[19]، ومن وسائلها نذكر كذلك المساجد التي كانت تقام فيها دروس للوعظ والإرشاد والتوجيه الإسلامي وتعتبر نقطة التقاء بين قادة الجمعية ومختلف الشرائح الاجتماعية من ذلك نذكر"الجامع الكبير" بقسنطينة[20]، كما عملت الجمعية على بناء المدارس وذلك حتّى يتعلّم البنين والبنات مبادئ اللّغة العربية والدّين الإسلامي، إلى جانب ذلك توجد النّوادي التي تقوم الجمعية من خلالها بتثقيف الشّباب وتوعيتهم سياسيا[21]، وبذلك كان لها دور في تنمية الوعي الوطني والعمل على فصل الدين عن الدّولة من أجل الحفاظ على الشخصية الإسلامية للجزائريين[22].

ولقد تجسّدت أهداف الجمعية من خلال تدخلاتها المختلفة في عدة قضايا كمشاركتها في جلسات المؤتمر الإسلامي-الذي انعقد في جوان 1936 بقاعة الماجستيك بالجزائر العاصمة[23]-، وقد ضمّ ذلك المؤتمر وفودا شملت بالإضافة إلى أعضاء جمعية العلماء المسلمين، المنتخبين الجزائريين والشيوعيين[24]، وقد حدّد ابن باديس هناك مجموعة من المطالب كانت بمثابة رد على مشروع بلوم فيوليت نذكر منها:

- إلغاء القوانين الاستثنائية.

- فصل الدّين الإسلامي عن الإدارة الفرنسية.

- إرجاع الأوقاف إلى جماعة المسلمين[25].

- ضرورة تعليم اللّغة العربيّة وضمان حرّية الرأي[26].

بالإضافة إلى ذلك تضمّن المؤتمر قرارات أخرى منها مطلب إلحاق الجزائر بفرنسا مع المحافظة على الشّخصية الإسلامية، وهذا ما يعاب على الجمعية لكونها وافقت على هذا البند بالرّغم من دعوته الصّريحة إلى الإبقاء على الوجود الفرنسي بالجزائر، ولكن ربّما يعزى السبب أنّ قيادة الجمعيّة وافقت على ذلك لمصلحة وحدة الحركة الوطنيّة ومنع مصادرتها وبالتالي التخلّي عن إحدى المبادئ لصالح الجميع خاصّة أمام تمسّك المنتخبين بفكرة التجنّس والمساواة.

بناءً على ذلك فإنّ الجمعيّة قد ساهمت في ترسيخ المبادئ العربيّة الإسلاميّة، وكذا عملت على تبيان حقيقة المستعمر وهذا بإتّباع عدّة وسائل كإنشاء المدارس-أكثر من 150 مدرسة عبر التّراب الجزائري [27] -وإلقاء الدّروس في المساجد، هذا علاوة على المقالات والمنشورات في الصّحف والمجلات[28].

ولم يقتصر نشاط وتأثير العلماء على نشر التعليم داخل الجزائر فقط بل امتد إلى فرنسا حيث آلاف العمّال، فمنذ أن توجّه ابن باديس إلى باريس ضمن الوفد الإسلامي عام 1936 بدأ الاتصال بين العلماء وقادة العمالة هناك، وخلال سنة 1937 ضاعفت الجمعية نشاطها في باريس والضواحي، فقامت بإنشاء النوادي والمدارس وذلك لتعليم الجالية الجزائرية[29].

ومع بداية عام 1938 تعرضت الجمعية لمضايقات من قبل سلطات الاحتلال التي قامت بمنع إلقاء الأناشيد الوطنية، وأصدرت مرسوم 13 جانفي 1938 القاضي بفرض رقابة مشددة على نوادي جمعية العلماء ومنعها من القيام بأي نشاط ثقافي أو سياسي، إلا بعد الحصول على موافقة من الإدارة الفرنسية، كما أصدرت مرسوم 08 مارس 1938 القاضي بمنع فتح أي مدرسة في الجزائر إلا بعد الحصول على الموافقة من سلطات الاحتلال [30] يؤكد ذاك ما أعلنه ابن باديس حينما تحدّث عن الفرنسيين :" بأنّهم اضطهدوا العلم وقاوموا الدّين وأهانوا المساجد وأغلقوا المدارس وأهملوا التعليم" [31] ، وقام المستعمر بعد ذلك باعتقال بعض أعضاء الجمعيّة كالبشير الإبراهيمي، وفرض الإقامة الجبرية على ابن باديس عام 1939 وأوقف مجلّة "الشهاب" عن الصّدور .

ونسجّل هنا تحول من جانب فرنسا ضد جمعية العلماء المسلمين، يعزى السبب في ذلك أن إدارة المستعمر لاحظت أن أبعاد الجمعية قد بدأت تظهر وتنعكس وسط المجتمع الجزائريمن خلال زيادة عدد المنضمّين إليها وكذا ارتفاع عدد مدارسها والمساجد التي أنشأتها، وبالتالي سرعة انتشار التعليم باللّغة العربية والوعي بالدّين الإسلامي، وفي ذلك بعث للهوية الجزائرية وخطر على اللّغة الفرنسية والدّيانة المسيحية والوجود الاستعماري بحدّ ذاته، كما أنّ الأوضاع في القارّة الأوروبية قد أصبحت خطيرة في ظل تصاعد قوى عالمية جديدة نقصد هنا ألمانيا النازية، ولهذا فرنسا في حاجة إلى تهدئة الوضع في الجزائر، وذلك للتفرغ والاستعداد للحرب العالمية الثانية فقامت بتضييق الخناق على نشاطات الجمعية.

الهوامش

1- عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى(1931 -1954) منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، ص ص 61-62.

2- الجيلالي صاري، محفوظ قداش-المقاومة السياسية(1900 -1954):الطريق الإصلاحي والطريق الثوري، تر: عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987،ص 24.

3- رابح تركي: التعليم القومي والشّخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص 39.

* - من مواليد عام 1889 بمدينة قسنطينة، تلقّى تعليمه الأوّل بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى جامع الزّيتونة بتونس،حيث درس علوم التفسير، وأصول الفقه وآداب اللغة وفنونها، انتقل بعدها إلى بلاد المشرق حيث تعرف على علمائها، ليعود أدراجه إلى قسنطينة حيث اشتغل في مهنة التدريس والتكوين، أسّس في عام 1925 جريدة المنتقد، عيّن في عام 1931 رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، توفّي في أفريل 1940.ينظر: رابح تركي-الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، منشورات ANEP، الجزائر، 2001، ص 153.

4- الزبير بن رحال- الإمام عبد الحميد بن باديس : رائد النهضة العلمية والفكرية 1940-1889، دارالهدى، الجزائر 2009، ص ص 67-68.

5- Mohammed Teguia: L'Algérie en guerre, éd.Office des publications universitaires,Alger2007, P35.

6- بوفلجة غيات: التربية والتعليم بالجزائر، ط 2، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2006، ص 26.

7- محمد البشير الإبراهيمي: احتفالات القرن، "مجلة مجمع اللغة العربية"، العدد 21، القاهرة، 1966، ص 143. وللتوسع أكثر ينظر: محمد خير الدين -مذكرات، ج 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1996، ص 111.

8- أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتابالجزائر 1985، ص 99.

9- Benjamin Stora -Algérie: Histoire Contemporaine (1830-1988), éd, Casbah, Alger, 2004 P78.

10- محمد طهاري: الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر، دار الأمة العربية للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر،1999، ص 11.

11- Ferhat Abbas Ferhat Abbas-La Nuit coloniale: guerre et révolution D'Algérie, éd. Livres, Alger, 2011, p121.

12- كريمة بن حسين: الحياة السياسية في قسنطينة من 1930 إلى 1939، رسالة للحصول على دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث، معهد العلوم الاجتماعية، دائرة التاريخ، جامعة قسنطينة، الجزائر، 1984، ص 110.

13- عبد الكريم بوصفصاف: المرجع السابق، ص 101.

14- أحمد الخطيب:المرجع السابق، ص ص 112-113.

15- محمد لحسن زغيدي، "مجلة الذاكرة "، العدد 2، السنة 2، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1995، ص 164.

16- قريري سليمان: تطوّر الاتّجاه الثوري والوحدوي في الحركة الوطنية الجزائرية (1940-1954)، أطروحة دكتوراه إشراف: مناصرية يوسف، جامعة الحاج لخضر، باتنة، (2010-2011)،ص 68.

17- Slimane Chikh,- L'Algérie en Armes : ou le temps des certitudes, 2eme éd, éd.économica Paris, 1981, P 38.

18- ابن باديس وعروبة الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973، ص 25.

19- جريدة الشهاب: مجلد 13، قسنطينة، 1937، ص 20.

20- الزبير بن رحال: المرجع السابق، ص ص 57 - 56 .

21- أحمد الخطيب، المرجع السابق، ص 229.

22- مصطفى الأشرف.- الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة : عيسى حنفي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983 ص 244.

23- Jacque Berque: Le Maghreb entre deux guerres, éd : revue augmentée, France, 1970 , P322.

24- Charles Robert Ageron : L'Algérie Algérienne du napoléon III a De Gaulle, éd, Sindbad la Bibliothèque Arabe, Paris, 1980, P 144.

25- أحمد الخطيب: حزب الشعب الجزائري، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 196.

26- ناصر الدين سعيدوني: الجزائر منطلقات وآفاق(مقاربات لواقع الجزائر من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 165.

27- إدريس خضير: البحث في تاريخ الجزائر الحديث (1830-1962)،ج1،دار الغرب للنشروالتوزيع، الجزائر 2006ص 355.

28- مجلّة الشّهاب: مجلد 10، قسنطينة، 1937، ص 259.

29- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1930-1900)، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992،ص 104.

30- Charles Robert Ageron: Histoire de L'Algérie Contemporaine, éd, P.U.F , Paris, 1979,P 347.

31- مجلة الشّهاب:المجلد 13، الجزء 9، قسنطينة، نوفمبر 1937.

32- عبد الرّحمن بن العقون: الكفاح القومي السياسي من خلال مذكّرات معاصر: الفترة الأولى (1920-1936)، ج 1المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984،ص 223.